١٧ ـ رحلة إلى الهند

للدكتور عبد الوهاب عزام بك
وزير مصر المفوض لدى المملكة العربية السعودية

في مدينة لاهور

كانت بوادر الفتن والهرج منتشرة في أرجاء الهند ، وكانت لفحات الصيف بين الحين والحين تؤذن باقتراب الصيف ، وكان الوقت أضيق من أن يتسع للتجول في أرجاء الهند وإجابة دعوات لزيارة كلكتا بل ما هو أقرب منها مثل لكهنو وديوبند ، والله آباد ؛ ولكن مدينة واحدة كانت تدعوني دعوة لا أستطيع ردّها ؛ كانت مدينة لاهور مدينة الشاعر الخالد محمد إقبال توحي إليّ كل حين أن أزور دار الشاعر وقبره . وكان إعجابي بالرجل وحبي إياه يقضيان بأن أذهب إلى لاهور مهما يضق الوقت وتكثر العوائق . ولم أجز لنفسي قط أن آتي إلى الهند وأرجع دون أن أزور قبر إقبال وداره في لاهور .

عزمت على السفر إلى لاهور ورأيت أن أهدي إلى مزار الشاعر الفيلسوف هدية من الشعر فنظمت أبياتاً وكلفت نقاشاً أن ينقشها على لوح من الرخام .

* * *

ويوم الإثنين ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٣١٦ هـ (١٤ نيسان سنة ١٩٤٧) ، ركبت القطار الذي يسمى « بريد الحدود » وكان موعد سفره من دهلي الساعة التاسعة فأخذت مكاني فيه وتأخر سفره نحو ساعة . وكان في المقصورة سريران أخذت أحدهما واحتل الثاني ضابط من السيك[1] .

ولما أصبحنا نظرت فإذا منظر الأرض أنضر مما عهدت في

(١) سمعت الناس في الهند يقولون السيك بالكاف لا السيخ بالخاء وهي تكتب سيكه بهاء في الآخر . وأحسب قراء العربية وجدوها مكتوبة بالحروف اللاتينية Sihh فلفظوها بالخاء كما يلفظ في Lkh عادة .

وأبو حيّان ، فمن هو الثالث ؟ ثم تسكت ونسكت ! ! فلمّا لم نجدْ منا جواباً ! جاهرتَ ، وصحْتَ : « إنه (الزيات) ، إنه (الزيات) ، إنه أمير النثر والناثرين ، وإنه لسيد البلغاء » .

فهل حسبنا وأنت تحاضرنا ، أنه لم يبق بيننا وبين أن ينطفئ هذا السراج الوهّاج ، إلا سويعات! ألا لشدّما تحطّمنا الأقدار، ويسخر منا ومن آمالنا الليل والنهار ! لقد وعظتني حيا وميتا ! ألم تصحبني لمواساة « آل عبد الرازق » عشيةَ فجيعتهم في (الشيخ الأكبر) فلما جلستَ إلى «علي» اعتاج الهمُّ، وكان وجومٌ، فما راعنا إلا صوتك يقطع الصمتَ ، ويعبّر عن روعة الموت :

« خَرِسَتْ لعمرُ الله ألسنُنا ٭ لما تكلم فوقنا القدَرُ ! ! »

إن العربية اليوم لوالهى ، تتفزع من هول يومك ، وإن مصر لحزينة على العالم الأكبر ، والباحث الأكبر ، الذي صاتت صولته في أرجائها : « ألا إن محمداً ، وذكرى محمد ، وقرآن محمد ، ولغة محمد ، وعربية محمد ، وأدب محمد »

« كل ذلك لن يزول ، كل ذلك لن يبيد وفي الدنيا مصر[1] لقد عرفتْ مصرُ لك هذا الفضل وذلك الجميل، وإن جحده جاحد . فها هو ذا حوها يتلقى أنفاسك الطاهرة ، وها هو ذا ثراها يزكو بعظامك ، ويستأثر برفاتك ، حانياً عليها مزهواً بها ! وها هي ذي سحائبها تروّي أجداثك بكرة وعشيا ، فلطالما رويت وأبهجت قلوباً ، ثم ناحتَ وجاهدتَ وناضلت لتسود لغة القرآن .

يا شهيد العلم والتحقيق :

لقد رفعك الله مكاناً عليّاً ، وجعل لك في الخالدين ذكراً سرمدًا : وإنك ميت ، وإنهم ميتون ، ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ! ونشهد ! ما عرفنا ولا رأينا لك ضريباً ، يرسل قليه في كلامه ، ويسكب عقيدته في حديثه ، ولا أدركنا أميناً يؤدي أمانة العربية كما أدّيتَها ، ولا صادقاً ولا وفياً يتحرق وجداً ببيان القرآن ، ولا شجاعاً مغواراً ، إذا رأى أو سمع — الهجين — أرسل عليه صيحات من بلاغته ، لا بل سهاماً من كنانته ...

إني لأتمثلُ فيك بقول « الشريف » ، كما كنتَ تتمثلُ بقول « الشريف » :

يا ليتَ أني ما اقتنيتُكَ صاحباً ٭ كم غُنيةٍ جلبتْ أسًى لفؤادي
أعزِزْ عليّ بأن يفارقَ ناظري ٭ لَمَعانُ ذاك الكوكب الوقّاد

فيا أرواح الشهداء والمجاهدين : لقد جاءكم روح « إسعاف » ، فيا وحشتنا بعده ، ويا أنسكم به ! !

محمد عبد الرحمن الجديلي

(١) من كلمة الفقيد في مهرجان شوقي بالقاهرة

الطريق بين دهلى وعليكر وأجرا . واجتاز القطار جسوراً عدة فوق أنهار . ورأيت محطات القطار أكبر وأعمر والناس أصبح وأنظف . فقلت إنه إقليم البنجاب الذى تجرى فيه روافد نهر السند الخمسة . وهو معروف بجودة هوائه وقوة أهله وغناهم .

وبعد الساعة التاسعة من الصباح وقف القطار على أمرتسار مدينة السيك المقدسة . ولولا الاضطراب لزرتها . وقد حدثنى رفيق الضابط وهو يستعد للنزول فى أمرتسار بما فيها من هيج بين المسلمين والسيك .

وكانت وقفة القطار التالية فى لاهور ، وبينها وبين أمرتسار مسير نصف ساعة .

مدينة لاهور

هى عاصمة البنجاب . وكان الظن أن تكون عاصمة دولة الباكستان ولكن الحوادث جعلت كراتشى العاصمة اليوم .

وهى على مقربة من الشاطىء الأيسر لنهر راوى أحد فروع السند . وتقع على الدرجة ٣١ من خطوط العرض الشمالى وعلى الدرجة ٧٤ من خطوط الطول الشرقى . فعرضها كعرض القاهرة ولكنها أشد حراً منها ، بل هى من أحر بلاد الهند وإن كان ارتفاعها ١٧٠٦ قدم لتوغلها فى البر بعيدة من البحار .

وهى على الهيع من أفغانستان إلى الهند تلتقى بها سكك حديدية . وهى على بعد ١٧٧٠ كيلو من كلكتا و ٤٣٨ من دهلى .

وسكانها أكثر من ربع مليون . وتشمل اليوم المدينة القديمة ومحلات حديثه فيها أبنية فخمة .

وهى مركز ثقافة واسعة بها جامعة البنجاب والكلية الأمريكية ومدارس أخرى كثيرة .

* * *

لا يعرف شىء من تاريخ لاهور قبل الإسلام . وفى أساطير الهند أن مؤسسها لوه بن راما بطل قصة الرامايانا المعروفة فى الآداب الهندية .

وقد صارت ذات شأن فى التاريخ الإسلامى منذ فتحت الدولة الغزنوية الأقاليم الشمالية الغربية من الهند . واتخذتها هذه الدولة حاضرة حينما زحزحها الغوريون عن أفغانستان فاقتصر سلطانها على ما فتحته من الهند . وذلك فى عهد السلطان مسعود الثالث سنة ٥٥٣ . فهى أول حاضرة لدولة إسلامية فى الهند .

وقد تقلبت عليها الخطوب ولقيت من غارات التتار ثم غارات تيمورلنك مالقيت .

ثم اتسعت واستبحر عمرانها ، وازدانت بالأبنية العظيمة الرائعة والحدائق أيام الدولة الإسلامية الهندية الكبرى دولة التيموريين .

استولى عليها ظهير الدين بابر مقيم الدولة التيمورية وتوالى على تعميرها خلفاؤه حتى صارت إحدى المدن الثلاث العظيمة فى عهدهم . والأخريان دهلى وأجرا .

وقد أقام بها جلال الدين أكبر سنين كثيرة من سنى ملكه . وجعلها ابنه جهانكير العاصمة الثانية (بعد دهلى) . وبها مات وسنذكر قبره من بعد .

وقد بنى فيها هذا السلطان أبنية كثيرة منها القصر الجميل الذى سمى خوابكاه (المنام) ومنها موتى مسجد فى القلعة (أى مسجد اللؤلؤة) وقد ذكرنا من قبل مسجدين بهذا الإسم فى قلعتى دهلى وأجرا . وهى مساجد صغيرة فى القلاع يصلى فيها السلاطين . وقد بالغوا فى تشييدها بالرمر وتجميلها .

ومن أبنية شاه جهان ، وهى كثيرة ، الرواق الذى يسمى نولاك (تسعة لاكات) لأنه أنفق على بنائه هذا المقدار . واللاك مائة ألف « وكان كله مرصعاً بالجواهر » .

وبنى السلطان أورنك زيب مسجد الجمعة . وهو مسجد فسيح جداً يقال إن السلطان بناه ليسع كل من تجب عليهم الجمعة فى لاهور وسيأتى ذكره .

ولما ضعفت الدولة التيمورية وعجزت عن صد المغيرين من إيران وأفغانستان أصاب لاهور شر عظيم من غزوات نادرشاه ١٦٤٨ — ١١٦٠ هـ والشاه أحمد الدرانى مؤسس الدولة الأفغانية ١١٦٠ — ١١٨٧ هـ .

ولما قامت للسيك دولة فى تلك الأرجاء كانت لاهور عاصمتها حيناً ، إلى أن أزال الإنكليز الدولة وألحقوا بنجاب بالهند البريطانية .

وللسيك فيها آثار لا تدل على براعة فى الفنون . وقد مسخت غاراتهم وفتوحهم كثيراً من الآثار الإسلامية الرائعة .

(للكلام صلة)

عبد الوهاب عزام